



فصل

في حكومة الشام قبل حوادث سنة ١٨٦٠

نرى من الواجب ايضاح حالة الشام وحكومتها في الاعوام التي سبقت الحوادث الشهيرة لما لها من العلاقة الكبرى بالحروب والمذابح التي سوف نرويها فنقول بالاختصار ان البلاد كانت كما هي اليوم تابعة للدولة العثمانية يحكمها العمال من الاتراك واشراف البلاد باسم السلاطين العظام الذين شادوا لهذه السلطنة صروح المجد والفخار واحسنوا معاملة رعاياهم حتى اجتذبوا اليهم القلوب وصيروا ممالكهم اقوى ممالك الارض ولا غرو فبالعدل تقوى الممالك

﴿ مقاصد السلاطين العظام ﴾

وكان سلاطين آل عثمان العظام الذين اسسوا هذه الدولة يريدون ان يعيش الناس في ظلمهم آمنين مستريحين فاتخذوا العدل لهم شعاراً وجعلوا مراعاة العوائد والعقائد مناراً وابقوا لكل امة حكموها الخيار في المحافظة على لغتها ونقاليدها ودينها فضمنوا بذلك رضاء الاهالي من كل جنس ومذهب عن دولتهم وحب هؤلاء الاقوام لحكومتهم وتسليم الافراد والجماعات لارادتهم حتى دانت لهم الرقاب وخضعت لهيبتهم الطوائف. بمثل هذا قامت سلطنة آل عثمان واتسع

نطاقها وازداد سوددها وعظمت قوتها ورسخ قدمها في البلدان الكثيرة التي ملكتها ببسالة سلاطينها وقوادها

وقد عادت هذه السياسة القويمة الناجمة عن نيات حميدة وسرائر طاهرة عادلة بجميع ما قصد منها بحيث لم يمض الوقت القصير على العرش العثماني الا واضحت رايته الهلالية تخفق في جهات كثيرة من الارض تظلل بظلمها امما كثيرة رعت في بجموحة العدل والامن والطمأنينة مع انها كانت سببا لالقاء الرعب والخوف في قلب كل عدو يحاول ان يأتي امرا نكرا لفساد في سيرته او مطامع في نفسه وحافظ السلاطين العثمانيون العظام في كل ادوارهم على قواعد

هذه السياسة التي اوجبتها عليهم عدالة مبادئهم وسمو مداركهم وحبهم لراحة رعاياهم . وكانوا آونة بعد اخرى يأتون بالادلة الحسية الظاهرة على استمرارهم في اعتبار هذه المبادئ الحسنة فان ساكن الجنان السلطان محمد الفاتح عندما فتح القسطنطينية استدعى البطريرك بيساديوس اليه وسلمه بيده الشريفة التاج وعمما البطريركية الرعوية وطيب خاطرهُ واقرهُ على جميع ما كان له من الحقوق والامتيازات وسياسة رعيته الروحية ايام الدولة الرومانية وسلمه فرمانا سلطانيا صار بذلك قاعدة لكل فرمان من هذا النوع صدر بعده ورخص له بممارسة طقوسه وعوائده الدينية بكل حرية ومنع عنه كل معارضة بذلك . وقد منح هذا السلطان العظيم مثل هذه المنح الجليلة لجميع الطوائف الاخرى في ممالكه الواسعة فكان كلُّ يمارس دينه وعوائده ولغته على ما يريد . وقد كان خلفاؤه من السلاطين العظام يسرون

على هذه المبادئ ويزيدون على هذه المنح والامتيازات كما اقتضت
الاحوال ودليل ذلك ما صدر في مدة كلٍ منهم من الفرمانات
لرؤساء الملل ومحافظة اولئك السلاطين العظام على ما في تلك
الفرمانات من الانعامات والامتيازات

وسهر اولئك السلاطين العظام على راحة الرعية على اختلاف
عقائدها ونكلموا بكل معتدٍ على حقوقها وشرائعها معها كان مقامه ورتبته
فان ساكن الجنان السلطان محمود الثاني لما رأى الاختلال الواقع من
الجنود التي كانت تؤلف من الانكشارية وغيرهم وما كان يصل بالريعية
من شرها وتعليقها على المسلمين وغير المسلمين خصوصاً وما ظهر من
عصيانها من وقت الى آخر حتى صارت آلة تسلب امن المملكة بعد
ان كانت الآلة الوحيدة لحفظ النظام الداخلي والامن الخارجي عمل
على ابادتها منعاً لشرها وتمكن من ذلك فاباد تلك الزمر العاتية عن
آخرها وانشأ نظاماً عسكرياً جليلاً حسب النظام الاوروبي فكان من
نتائج عمله هذا الاقتصاص من المجرمين وحفظ راحة صنوف الرعايا
في الداخل وتجديد سطوة المملكة في الخارج . وساكن الجنان
السلطان عبد المجيد رأى ان نظامات المملكة الداخلية قد شابهت الخلل
ولم يعد بها الكفاءة لضمان الحقوق لجميع اصناف تبعته فعمد الى
اصلاح هذا الخلل بوضع نظامات جديدة دعاها بالتنظيمات الخيرية
واصدر فرماناً سلطانياً بها . وكان من خصائص هذه التنظيمات التي
صارت بدء عصر جديد للملك العثمانية ان يتساوى جميع افراد الرعية
من اي مذهب وجنس ورتبة في جميع الحقوق الوطنية . نعم ان

هذا العصر الجديد لم يغير طباع بعض الظالمين كاحمد باشا الذي كان والياً على سورية سنة ١٨٦٠ إلا ان رغبة هذا السلطان المجيد ورجال دولته الامناء في مصلحة الرعية وخير المملكة قد اخرجت هذه المقاصد الخيرية من حيز القوة الى حيز الفعل واقتضت ممن قاومها وابدى التعدي على الرعية كما اقتضت من احمد باشا الذي سنأتي على ذكر اعماله وجعلته هو ومن جرى مجراه يريد بالرعية شرًا وفسادًا ويعمل على تفريق كلمتها والقاء الشقاق والعداء بين جامعتها

فيظهر مما تقدم ان الفتن والمذابح التي ورد ذكرها في تاريخ الشام لم تكن بقصد احدٍ من السلاطين او رجال دولتهم الامناء بل من العمال الاردباء ومن تعدي الفئات التي ابادها السلطان محمود الثاني كما تقدم ومن كان يقتدي بها من الاهالي . وكان بعد المسافات وضعف وسائل الاتصال في تلك الازمنة من اعظم ما ساعد اولئك المعتدين على اجراء ما كانوا يجرونه من الاعمال المغايرة لرضاء سلاطينهم وولاة امورهم ومع ذلك فهم لم ينجوا من القصاص الصارم عند ما بلغ خبر فعالهم اذان السلطان كما عوقب احمد باشا وغيره

) الايالات ()

وكانت البلاد اربعة اقسام ادارية تسمى ايالات الاولى ايالة حلب والثانية ايالة دمشق كانت تتناول اواسط البلاد مما يلي الشرق والثالثة ايالة صيدا او بيروت وكانت تتناول اواسط البلاد مما يلي الغرب . والرابعة ايالة القدس الشريف . وكان لكل ايالة وال مستقل

يخاير الباب العالي رأساً في امور ايالته الا ان الايالات الاربع كانت خاضعة لسلطة واحدة عسكرية يقيم رئيسها في دمشق الشام ويسمونه مشير العرضي الهايوني الخامس وعلى هذا المشير ادارة الشؤون العسكرية في سوريا كلها (ولم يزل هذا النظام الى اليوم) وعليه ان يقدم القوات اللازمة عند اللزوم لكل والٍ طلب منه ذلك لاجل تقرير الامن في البلاد وحفظ نظامها

وكان رجال العسكرية في ذلك الوقت (الا القليل منهم) من ضباط كبار وانفار صغار خليطاً من ولايات الدولة في اوربا واسيا الصغرى وكان العرب بينهم قليلاً لان نظام العسكرية لم يكن نافذاً فيهم

* المتسلّمات *

وقسمت كل ايالة اقساماً كل قسم منها عبارة عن مدينة ونواحيها وسميت هذه الاقسام متسلّمات . وكان لكل قسم حاكم يسمونه متسلماً يعينه الباب العالي رأساً او والي الايالة ومرجع اموره في متسلّمته الى والي الايالة التابع لها . وكان لعطاء الاهالي نفوذ كبير لدى المتسلمين حتى انهم كانوا يعارضونهم في كثير من الامور ويساعدونهم على اجراء ما لهم رغبة او غايات خصوصية فيه واما المتسلمون فكانوا يسعون وراء منفعة انفسهم اولاً لا يهمهم خربت البلاد او عمرت ولم يكن لهم قانون يجرون عليه ويؤخذون على مخالفته ولكنهم ساروا بحسب الاهواء والاميال وكثيراً ما سعوا في تفريق الرعية حتى يساعدوا الانقسام على نوال ما يتنون

* حكم الجبال *

اما الجبال وبعض اقسام البلاد فكان يحكمها بعض الامراء والبيكات والمشايخ تولوا شؤونها منذ زمن طويل وكانت لهم اقطاعاً يحكمونها على ما يرون ويرجعون في الاحكام الى الايالة التابعين لها . واشتهر عن هؤلاء الحكام الاستبداد والجور وكثيراً ما كانت تقوم الحروب بينهم ولطالما هب بعضهم الى الثورة وجرّد سيفه لمحاربة جنود الدولة . وكان بعض حكام الايالات يستعينون بهم على ايالة اخرى او على مشايخ اياتهم ولهذا ساد الاضطراب والانقسام الدائم وكانت امنية القوافل والمسافرين في الطرقات مسلوقة الا اذا ادوا ضريبة لكل حاكم يمرون في بلاده وللعرب سكان البوادي ضرائب على البلاد يسمونها خاوات اذا تأخر الاهالي عن دفعها حمل عليهم البدو ونهبوهم ونكلوا بهم وتعذر سلوك الطرق على المسافرين حتى انهم كانوا يتأفون جماعات مسلحة اذا راموا السفر الى احدى المدن او الى جهة من جهات البلاد ليتمكن لهم دفع النوازل ورد المهاجمين والمعتمدين وان يكن العدد الوافر منهم لم ينبج من الجور والاعنداء . وكان المسافر في تلك الازمنة كمن يقتحم خطراً عظيماً لانه فضلاً عن اخطار الطرق كان اوباش المدن شراً عظيماً على أولئك الغرباء الذين يأتونها من المقاطعات وخصوصاً من المسيحيين الذين كانوا يصادفون انواع الاعنداء والخسف ايضاً ساروا وكان اهالي لبنان مع ما هم عليه من شدة البأس

في تلك الايام يحسبون الذي يسافر منهم الى احدى المدن تابعة في
الجسارة والاقدام

﴿ الاموال الاميرية ﴾

ولم تكن الحكومة في تلك الايام تسأل حكام المقاطعات في
اغلب الاحيان الا اداء الاموال الاميرية المضروبة على بلادهم
فكانوا يجمعونها من بلادهم اضعافاً بحسب ما يبدو لم فيظلمون او يرحمون
عليها يريدون وبتغفون والناس يحنمون ذلك ولا يجسرون على
الشكوى او ايداء المعارضة لحاكمهم في بيان تظلمهم فاذا اقدم واحد على
ذنب التظلم للحاكم او لاله وعرف به الحاكم جوزي واهله بالدمار وقام
الآثار . وكان اذا حارب احد هؤلاء الحكام حاكماً آخر او عصى
الحكومة او انتصر لحليف له يلتزم رجال الاهالي عند سماع نداء
الحرب ان يتجنّدوا تحت راية حاكمهم على نفقة انفسهم ولا يمكن لاحدهم
ان يتقاعد عن ذلك والافيصير عرضة لكل ويل وبلاء . وكثيراً ما
ساق العسف بعض هؤلاء الحكام الى تجاوزة حدود الادب والشهامة
بالاعنداء على اعراض الرعية وهتكها

﴿ حالة المدن ﴾

ولم تكن حالة المدن افضل من حالة الارياف ولكنها كانت اكثر
نعاسة واشد شقاء ولا سيما في اوائل هذا القرن حيث بلغ الاخلال

حدة في البلاد وحل الويل فيها وعمّ البلاء وزاد الشقاء إذ صارت هذه المدن مرسماً للاعتداء والجور وميداناً للخصومات والثورات المتواصلة وكثرت المصائب لا رداً لها ولا وازع وجعلت شأنها تنفيذ مآربها بالقوة لا بالحق غير ناظرة الى ما سوى النفع الخاص ولا عالة بغير القسوة المائلة والجهل الكثير

﴿ قسم تملك ﴾

واما سبب هذا الاخلال فهو السياسة السيئة التي اتبعها الولاة لغاية في النفس يقصدون منها بلوغ مآربهم ونيل مقصدهم . هو لاء جعلوا شعارهم المثل القائل « قسم تملك » فكانوا يسرون على هذه الخطة الدنيئة ويسعون في تقوية فئة على أخرى من الناس فينالون مآربهم من الطرفين . وقد بلغوا مرادهم في بادىء الامر الا ان سياستهم اضرت بهم في آخر الايام فصارت البلاد الى الهمجية والاخلال وفقدت اسباب الراحة وباتت دائرة نفوذ الولاة ضيقة حتى انحصرت في بعض الضعفاء وآل الذمة

ثم ان تقسيم الاهالي على انفسهم اوجب على كل قسم ان يكون ذا قوة يستند عليها للثبات امام خصمه او للتغلب عليه فلهدا ولما يوجبه الانقسام من تباين الغاية والمطامع سيما بين اهالي الوطن الواحد صار للقوة المقام الاول فتشدد اصحابها وتمادوا في القحة حتى صاروا ضربة على الاهالي وعلى انفسهم ايضاً . وقد اوجبت سياسة الضعف هذا الاخلال العظيم في وجاقات الجند فصاروا الى العدا والتنافر وعدم الطاعة لولاة

الامور (الأذا كانت لهم غرض في الطاعة) ومن ثم جاروا بالرعية وزادوا الاحوال تعاسة وشرًا ففقد كل نظام وباتت البلاد في حالة الفوضى بلا ادارة تجمل الناس في ما من على انفسهم واعراضهم واموالهم وانحصرت السطوة والنفوذ في اصحاب الغايات والجهال الذين لا يعرفون الا الغلظة والتوحش ويشقون بالشر واقتراف الكبائر . وقد كان في البلاد قوم من آل العلم والوجاهة غير راضين عن تلك الحالة المخلة وعارفين مخالفتها للشرائع باسمها الا انه لعدم الحظ لم يكن لهم من الوسائط والقوة ما يرد هذا التيار المندفع الذي كان ينشأ عنه كل يوم ويل جديد ومخاوف عديدة توجب القلق والاضطراب . وهذه الاحوال المخلة جعلت الناس عرضة للاخطار المستمرة لاسيما الذين كانت الفجار يطمعون بهم فاضطروا الي تجنيد قوة خصوصية تصونهم وعمد اصحاب المنازل والمقامات الي اتفاق المال على رجال من الاشداء كانوا يذودون عنهم ويصونون حرمتهم .

*) امور الولاية *

اما الحكومة فكانت بيد والي الايالة وكتخدائيه او كاتم سره وكان هؤلاء على استبداد في الامور التي يقدرون على اجرائها وكثيراً ما كان الوالي يصادر الناس في اموالهم وخصوصاً آل الذمة ويأمر بقتل عمرو وزيد ويغدر بيكر وعبيد وتنفذ احكامه بدون ذنب يرجع الحاكم اليه ولا شرع يعول عليه . وتحتكي حكايات كثيرة تدل على هذا الجور منها ان احد الولاة كان ماراً في احد اسواق

دمشق وكانت الاسواق في ذلك العهد ضيقة فمرَّ رجل ومعه دابة محملة
عنباً فمست الدابة الوالي فامر بقطع رأس الرجل فقطع في الحال .
وامثال هذه الحكاية أكثر من ان تعد

❖ ديوان الايالة ❖

وكان في مركز كل ايالة ديوان يؤلف من بعض علماء المسلمين
والوجهاء يرأسه الوالي من شأنه النظر في امر الاموال الاميرية
ومال الجزية وغير ذلك . ولم يكن لهذا المجلس نظام او اوقات للاجتماع
واكثه كان يجتمع عندما يريد الوالي او اذا حدث ما يوجب انعقاده
وكان الحكم في فصل المشاكل الجنائية التي تقع بين بعض الناس
وتصل للحكام منوطاً في اغلب الاحيان بالقضا باشي ومركزه في باب
سراي الوالي ثم بالتفكجي باشية وهم رؤساء القره قولات في المدن
وكان هؤلاء القوم أميين جهالاً يحكمون بحسب اهوائهم وافكارهم
ونقودهم الرشوة ولم يكن لهم قانون يعرف او نظام يوصف

واما الاحكام الحقوقية وما شاكلها فالذي كان يسلم من تداخل
الوالي واحكامه كان يحال على الاحكام الشرعية . واما مسائل الاحوال
الشخصية فكانت منوطة بكل طائفة تحكم بها بحسب قواعد دينها

❖ اسباب القلاقل ❖

واما الثورات التي كانت تحدث والاعنداءات التي كانت تقع على
الذميين وآل السكينة من المسلمين فكان أكثرها من الجند ذلك لان
القوة الجندية بالاجمال كانت مؤلفة من رجال جهلاء تمادوا في القحة

والفجور اذ لم يرد عنهم نظام ولم تردهم قوة . وكان الجنود ثلاثة اقسام رئيسية منها اثنان وطنيان وهما الانكشارية والقباقول وقسم دخيل وهو جنود مأجورون كان يحضرهم الولاة معهم كحرس خديويي شهر ويؤلف هذا القسم من طوائف واجناس مختلفة كالارناؤود والمناربة والموصلة والتكارنة والترك والدلاة وغير ذلك وكان العداء بين الاقسام الثلاثة قائماً على قدم وساق وقد نشأ عنه حروب كثيرة بين هذه الاقسام المتضاغنة فتسبب عن ذلك مخاوف كثيرة ولحق بالاهالي اضرار عظيمة حيث كانت تنهب الدكاكين وثقل الاسواق وتتعطل الاشغال ويتعذر على ابناء السبيل الخروج من بيوتهم . وكمن مرة اضحت بعض المدن وخصوصاً الشام وحلب مطعماً للنار من جراء ذلك ولم ينصرف المشكل الاً بمداخلة الولاة او بعض الاعيان ولكن ليعود الشر بعد وقت قصير عند ما يحدث له موجب صغير وما ذلك الاً لعدم مقاصة المجرم وقلع جرثومة العداء ولظالما نهض القوم على الولاة انفسهم وقتلوهم وعساكرهم كما جرى في دمشق سنة ١٨٣١ لسليم باشا حيث قتل هو ومعظم عساكره لاجل ضريبة جزئية فرضها على الدكاكين والمخازن والبساتين . وقد كان الاعنداء على العرض والقتل مما يحدث في كل يوم

ولاجل تكرار هذه الاحوال الشنيعة كنت ترى شوارع المدن وحراراتها كثيرة الابواب العظيمة ثقيل ان الثورات وقاية لمن ورائها من السكان او لاجل ان يقيم التائرون وراؤها متاريسهم لصد اعدائهم . اما خانات التجارة فلم يكن التائرون يدخلونها وقيل ان ذلك

احتراماً لها إلا أن هذا قول ضعيف والمرجح أن لم يكن احترامها وعدم
الاعتناء عليها إلا لكونها قوية ولأنها كانت ذات ابواب حديدية
متينة جداً ولأنه كان يحرسها قوة كافية من الحراس لرد المهاجمين
عنها ولأن أكثر التجار كانت لهم اعتبار عند رؤساء الجند لكثرة ما
يقدمونه لهم من الهدايا والهبات

﴿ الوجاقات ﴾

وكان كل قسم من العسكر يسمى وجاقاً إلا أن أكبر هذه الوجاقات
وأكثرها رجالاً وقوة وتفوقاً كان وجاق الانكشارية ثم وجاق القبيقول
وكانت أكثر مدن الشام تقسم عسكرياً قسمين قسم انكشاري وقسم
قبيقولي ورؤساء هذه الوجاقات يسمون اغاوات . وكان رجال كل
قسم يشمون على يديهم بشارة وجاقهم وأكثر اجتماعهم في القهاوي
وجرت العادة أن يرسم فوق وجاق كل قهوة إشارة الوجاق الذي
يجتمع رجاله فيها ولم يكن لهم نظام عسكري في ذلك الوقت إلا
أن رجال كل حارة كانوا يخضعون لأغا الوجاق الحال فيها والجميع
يخضعون لكبير الوجاق المنتخب من بين الاغوات لامتيازهم بالجسارة
وصداقة الوالي أو لغير هذا ولم يمكن لحدث أو امرأة شابة جميلة
المرور امام القهاوي التي يجتمع فيها العساكر خيفة أن يضحوا فرسة
أولئك الجهال

ولما كان تفوذ هذين الوجاقين بالغاً جداً عظيماً ويدها على الاهالي
ثقيلة كثر المنتمون لها من الرجال والمنضمون اليها اما لغاية سلوك

مسلكتها او بغية الصيانة من الاعنداء من آل الوجداق نفسه او للاستعانة به على الغير عند الحاجة وقد انضم اليها وخصوصاً الى الانكشارية كثيرون من اصحاب الوجاهة وبعض من الادميين للغاية المذكورة . ولما كثر عدد رجال هذين الوجداقين صار معظمهم ينفقون على انفسهم من جيوبهم فلذلك اضطروا الى العمل مثل سائر الناس فكان يذهب الرجل منهم الى عمله متقلداً سلاحه ليسهل عليه الانضمام الى رجال وجاقه عند اللزوم . او يفعل ذلك للدفاع عن نفسه اذا عرض له عارض في طريقه . اما العطل من هؤلاء الرجال فكان شأنهم الجلوس في القهاوي ومعاقرة الخمر ومصادرة الناس والاعنداء على اولادهم وحرمتهم بحسب ما كانت تصوره لهم بنت الخان في رؤوسهم او ما تطالبه شهواتهم القبيحة وكثيراً ما كانوا يطلقون بنادقهم او يعملون سيوفهم بآل على غير سبب ولا يسألون عما فعلوا . ومع ذلك فكان يوجد فيهم عدد عديد من آل الشهامة والمروءة يدافعون عن الاعراض وينتصرون للضعيف ويحفظون الذمام ويجيرون المستجير

﴿ فئة المعتدين ﴾

ثم ان عدم وجود حاكم قادر ينصف المظلوم من ظالمه ويقتص من المعتدين ويضمن للرعية الصيانة اوجب ظهور القوة الافرادية فلذلك كثر في تلك الايام الرجال الجبابرة الاشداء من المسلمين والادميين غير المنتمين لحزب عسكري والمتكئين على قوتهم ونشاطهم .

وكان لهؤلاء الرجال الذين يسمونهم معتريين اعتباراً واحتراماً عند آل الوجاقات وبقية الناس . ومما يحسن ذكره ان هؤلاء المعتريين كانوا اصحاب شهامة ومروءة عظيمتين يحكى عنهم حكايات كثيرة صادقة نورد شيئاً منها على سبيل الفكاهة . يحكى ان رجلاً من الوجهاء بين المسيحيين مرت امرأته وهي خارجة من الحمام باحدى الخواري فصدف ان احد رجال الانكشارية مرَّ من هنالك فراقت في عينيه وتأنثها حتى عرف بيتها ورجع فتربص لزوجها حتى رجع من اشغاله فقال له استعد ايها الرجل لعشاء ومسكر وقل لامرأتك ان نتحضر لانى سآتي بعد ساعة لعندكم ففهم الرجل مقصد الانكشاري وما صم عليه من هتك عرضه فكبر عليه الامر وكان له صاحب مسلم من المعتريين فذهب اليه وقص عليه خبره فقال له اذهب لبيتك ولا تجف واعد للرجل العشاء والشراب وانا ساتبعك فذهب الرجل الى بيته حزيناً ليعمل ما طلب منه صاغراً وبعد القليل حضر الانكشاري فاقتبله بوجهه باشٍ فاخذ هذا بمعاقرة الخمرة وطلب المرأة لتسقيه فلم يسعها الا الحضور وهي مرتجفة وجملة . ثم حضر المعتري بسلاحه واخفى في البيت وقال لصاحبه انه عند ما يتعشى الرجل و يبلغ به المسكر حده اخبرني ففعل صاحب البيت فنهض المعتري من كمينه وهجم على الانكشاري قائلاً اتعلم ان هذا بيت صاحبي وتعتدي عليه ثم ضربه بسيفه وقطع رأسه اما الرجل وامرأته فخشيا عاقبة الامر واتفقا على هجرة المدينة فرحلا عنها ولم يرجعا اليها . وامثال هذه القصة كثيرة لا محل لايرادها الآن

﴿ التعصب الديني ﴾

وكان التعصب الديني آخذاً مركزاً عظيماً عند الناس في ذلك الحين كما ذكرنا حتى تجاوز القوم شرائط الدين وعدوا كل من كان خارجاً عن مذهبهم كافراً يجوز الاعتداء عليه لا اثم في اذلاله ناسين بان كل دين لا يميز الاّ رعاية الذمي والذود عنه والمحافضة على حقوقه ومعاملته بالحسنى وكان العدد الكبير من العلماء الاعلام وآل التعقل يعلمون ذلك ولم يمكن لهم ردع المعتدين في زمن عمت فيه الفوضى وصار الحكم للهمجية . وقد اوجب هذا التعصب على آل الذمة الانضمام في السكنى ليقدروا على ممارسة دينهم وتخف وطأة الغير عنهم فيخفف وياهم نوعاً ولم تزل كل طائفة في اكثر مدن سوريا تسكن في حيّ خاص بها دون سواها

﴿ حالة النصارى ﴾

وكان النصارى عرضة للاهانة والذل اكثر من كل اهل الطوائف الاخرى يسيء معاملتهم كل واحدٍ ما خلا اهل العلم والعقلاء ممن كانوا يذودون عنهم ويحمونهم واذ لم يكن لهم مخرج من ذلك الفوه كما الف مذلوهم اذلالهم . فكان النصراي حيثما توجه ينعت بالكفر ويشتم صليبه ويهان ويحقر وثقلب وعمته ويصفع الى غير ذلك وان سار في محلة المسلمين تبعه الصبيان قائلين له « نصراي كلب عواني . دقوله بالصراي . قالت امه فيه . ضربه ثقلع عينه » وامثال هذه من القبايح فكان يحتمل كل ذلك صابراً على بلواه لا يفوه بنت شفة ولا يقدر

على غير الاستجارة بتعقل مسلم اذا صدفه فيحاول هذا ابعاد الصبيته
 عنه فان اطاعوه كان به او لا فيضطر ان يتركه وشأنه آسفاً من
 هذا العداء . وكان المسلم اذا مر بمسيحي يقول له اشمل اي سر
 عن اليسار فيلبي هذا الامر صاغراً واذا كثر المارة ما بين ذاهب
 وآيب كثر شقاؤه ولم يعلم المسيحي كيف يسير فيدعي حينئذ الى
 الطورقة فيطورق اي يسير في الطاروق (الطاروق منخفص في وسط
 السكة يبلغ اقل من شبر انخفاصاً وعرضه من ذراع ونصف الى
 ذراعين وعلى جانبيه رصيفان للمارة ويسير في الطاروق البهائم محملة
 وغير محملة وفي الشتاء تجتمع فيه مياه الامطار وفي الصيف الاقدار
 وهناك يصادف العناء الاكبر من البهائم واصحابها هذا الحيوان يدفعه
 وذاك يزحمه والسائق يركزه والآخر يلكمه فلا يجد له مخرجاً من هذا
 الشقاء الاً بوصوله لمحلته او بخلو الرصيف من المارة فيصعد اليه .
 وكثيراً ما كان اصحاب الدكاكين في الاسواق يسخرونه لقضاء ما
 يلزمهم من الاشغال او يستعملون اهانتته واسطة لاذهاب ملابهم وتفريج
 كروبهم فكان احد اصحاب الدكاكين يناديه تعال يا معلم فيأتي
 فيقول له تقدم فيفعل فيصفعه ويكلفه ان يذهب ويحضر له حاجة
 او ان يلبسه مركوبه او يرفعه له من امام دكانه او ان يساعده في
 ترتيب دكانه وغير ذلك وان كان يريد المزاح معه فاما ان يهمس
 في اذنه شائماً اياه او يقول له امراً آخر او انه يتناول عمته عن
 رأسه ويصفعه ويرمي العمه الى جاره ويقول له اذهب وخذها منه
 فيذهب ليأخذها فيصادف من الثاني ما صادف من الاول الى ان

يقدّر الله له وجود واحد يشتغل في بيعه وشرائه فيسلبه العمّة او يكون من اهل الصلاح والانسانية فيدفعها اليه ويصرفه اعليه بان معاملة الذمي هذه لا تجوز (وقد كانت كثير من الاسلام ينكرون على اخوانهم هذه الافعال الغير الجائزة) وكان المضطهد المسكين يظهر البشاشة والرضا ويسلم ذاته للعذاب والويل . وكثيراً ما كان يأتي ولده او شاب من وراء النصراني ويقلب له عمته وياتي آخر فيدحرجها ثم آخر فيبعدها وكلما قصد صاحبها ان يتناولها يصفع ويرفس وكانت العمّة كبيرة مستديرة تحمكة الربط قويّة الشد لحفظ ما يضعونه ضمنها من الاوراق التي يضطر الى وضع ورقة خراجها فيها ليبرزها حالاً عند الاقتضاء ولم يكن يمكن للمسيحي تركها لان اوراقه داخلها ومنها ورقة خراجها التي اذا سار بدونها عرض نفسه للخطر والاهانة الكبرى

*) السخرة *

وكان القانون يحتم على الذمي ان يحمل على كتفه حيثما توجه كيساً يسمونه كيس الحاجة لا يخرج من بيته بدونيه والغاية من هذا الكيس ان يضع فيه ما يسخره المسلمون بحمله من خضار او غير ذلك . وصدف كثيراً ان الرجل النصراني كان يستمر مسخرّاً يوماً بطوله مع انه من اصحاب العائلات يعيش بدمعه اليومي فتضطره السخرة الى الميت وعيانه بلا طعام او يستمد مساعدة جيرانه . ولما كان القوم لا ينفرون من النصراني نفورهم من اليهودي كان نصيب النصراني من التسخير اكثر وويله اشد . واكثره تكرار هذه الامور التي لا تطاق

صار الناس يحبونها بسيطةً وكانوا عند ما يجتمعون في سهراتهم يسألون بعضهم بعضاً من نوع التباسط ان كم مرة شتمت و صنعت و كم حمل حملت فيقول هذا كذا وذاك كذلك ومن دلائل اعيادهم الذل وحببانيهم بانهم خلقوا له وان كانوا يشعرون بثقله هذه الحكاية وهي انه كان في اوائل هذا العصر شاب نصراني في دمشق من بيت كبير محسوباً من الظرفاء ومحبي البسط واصحاب الصوت الجميل فخطر له ان يجي ليلة طرب مع بعض خلانهِ فدعاهم الى سردابٍ تحت الارض ليقتضوا ليلتهم فيه ولا يسمع صوتهم خارج الدار (لانه كان يحظر على النصارى الغناء الا باذن خصوصي من الوالي والحاشية والاغوات و شيخ الحارة) فقتضوا معظم ليلهم في سرور وقد نسوا ما صادفوه في ذلك النهار وحسبوه كأنه لم يكن . ولما لاح الفجر ذهبوا الى حمام فاستجموا وخرجوا قاصدين احد المطاعم وكان ذلك اليوم يوم حضور الحج من الحجاز فمرّ بهم ولد من المسلمين وهم ياكلون وقلب عممة الشاب الذي ذكرناه فنزلت في المقلاة فاخذ صاحب الدكان من النار عوداً مشتعلاً وبدا يضرب النصارى به ويشتمهم ويقول لهم عطلمت نهاري يا كفار فاجتمع الناس على صياحه فمنهم من شاركه بالشم ومنهم من ساعده بالضرب الى ان مرّ شيخ فصرف الجمع وقال لصاحب الدكان اتصرف يومك يا رجل وهو موسم بهؤلاء الجماعة فاجبسهم بدكانك وبعد انتهاء الفرجة نقاضهم اضرارك ففعل الرجل ذلك وسرّ اصحابنا بهذا الرأي وعند انتهاء الفرجة اعاد المسلم الكرة على سجنائه وغرم كلاً منهم جملة مالٍ وصرفهم باسواء حال

* اموال الذميين *

اما اموال الذميين فكانت مطعماً للحكام وغيرهم فمن جهة كانت الحكومة تنزفها بزيادة مال الخراج الزيادة الفاحشة وبطلب القروض وما اشبه ذلك ومن جهة ثانية بالمصادرات وانتحال الاسباب فكان الحاكم اذا سمع بذي غني عمل على سلب ماله فيستدعيه ويطلب منه قدراً كبيراً من المال على سبيل المساعدة ربما فاق ثروته فياخذه منه فوراً او اقساطاً او يزجه في السجن ويتظاهر بانه يريد قتله مدعيّاً بانه خالف الحكومة ومن خالف الحكومة حسب عاصياً ومشاقاً وحل دمه وماله وعرضه فيسمع اهله وذويه فيأتون بغدائه بما تصل اليه ايديهم من الوسائط والمال ولذلك صار شان الغني من النصارى التظاهر بالفقر والمسكنة فكان لا يلبس الا البسط الاردية واذا عمل ثوباً جديداً وضع عليه رقعة كثيرة ليظهر الفقر الا ان ذلك ظهر للحكام فصاروا يرسلون الجواسيس من قبايلهم لمعرفة اصحاب اليسار وصار هؤلاء الجواسيس شراً عظيماً على الناس فاق شر الحكام اذ كان الحكام لا يصادرون الا اصحاب الثروة اما هؤلاء فلاجل نفعهم الذاتي وطمعهم بالارتشاء صاروا يتعرضون للجميع موسرين وغير موسرين ولا يتركون المرء الا بتغريمه ما يصل اليه جهدهم هذا غير وشاياتهم وتعمدهم كل واحد بالاذى لدى الحكام . وكان للحكام وسائل كثيرة غير التي ذكرت لانزاف مال الذمي منها ادعاء احد الجنود عليه بارتكاب ذنب فيؤتى به ويفرّم وان عجز عن اداء الغرامة

اضطرت البطريركخانه الى الدفع عنه والأحل به النكال او سيق الى
الشنق ما لم يسعده الحظ بشفاة احد آل الوجاهة من المسلمين . حكي
انه قبل احلال ابرهيم باشا دمشق ببضعة اعوام كان الخفراء ليلاً
في حارة النصارى فمروا بثلاثة شبان بيدهم المصابيح يودعون جيراناً لهم
رجالاً ونساءً واولاداً كانوا عندهم فتقدم احد الخفراء وقبض على
الشبان المذكورين قبضاً شديداً فاقى والدهم وتداخل بالامر ودفع
للرجل مبلغاً ليطلق سراح اولاده وابان له واقعة الحال فاخذ الخفير
المبلغ بعد ان تظاهر بالرضا في الافراج عنهم ثم ساقهم ليلاً الى دار
الوالي فزجوا في السجن حتى الصباح ولما علم الوالي انهم من الموسرين
ساقهم الى سجن القاعة (وكان من العادة ان الذي يسجن في القاعة
تنتهي حياته بالخنق) فعلم اهلهم بذلك واخذوا يدعون حالاً في
خلاصهم وتوسطت البطريركخانه وبعض اصحاب النفوذ من المسلمين فلم
يفرج عنهم الا بعد التعب الشديد ودفع مبلغ باهظ من المال .
والحكايات التي تحكى كينده لا تعد ولا تعدد لو شئنا سرد بعض الشيء
منها لملأنا المجلدات الضخمة ولكننا نكتفي بهذا القليل لضيق المقام
ورغبتنا في التقدم الى ذكر حوادث الحروب الهامة والمذابج الهائلة

﴿ الضرائب الاخرى ﴾

وفضلاً عن ضرائب الحكام كان على النصراني ضرائب اخرى
للاهلالي من الوجوه والمعارف من المسلمين والمتكيس بكيسهم من اغاوات
الانكشارية وغيرهم وكان يقدم هذه الضرائب في اوقات معينة وغير

معينة كهدايا في الاعياد واستعطاف الخاطر ويقوم بذلك عن طيب نفس ليا من على عرضه وحياته وماله ويكون له نصير عند الملأ هذا فضلاً عما كان يقرمه صغار الانكشارية وغيرهم من طوائف الجند من المغارم النقدية وما كان يصادفه من هذه الفئات من الاعتداء العظيم والمخاوف الدائمة فان هؤلاء القوم كانوا يطرقون ابواب النصارى ليلاً وهم سكارى آتية باوعية يطلبون املائها عرقاً فان املاها المطروق بابه تخلص من شرهم وان لم يكن عنده ارضاهم بالدرهم وان لم يكن لا هذا ولا ذلك الحقوا به انواع الاهانة والشر الذي لا يطاق او حرقوا بيته او دخلوه وانتهبوا ما به وهتكوا الاعراض وقد جرى ذلك مراراً عديدة ولم ينته الشر الا بتوسط احد المسلمين من المعترين او اصحاب الوجاهة

✽ الحياة المرة ✽

وخالصة الامر ان الحياة كانت مرة صعبة على الذين رزئوا بحكم الوحوش الضارية الذين سولت لهم النفس انه يجوز لهم تعذيب من لم يتبع رأيهم في الدين وكان اكثر التعدي الذي يصل باآل الذمة من الجند وعمال الحكومة فاذا سلم الواحد من هؤلاء المتوحشين لم يسلم من اندال الاهالي وارذال المسلمين ولظالما اضطر الناس الى ترك دينهم واعترافهم بالاسلام تخلصاً من كل هذه المصائب وفات القوم ان الاديان لا تقوم بالاكراه وانها تنهى عنه وتأمراً بالحسنى والمعروف تنكر على الناس الظلم والاستبداد ولكنه روح سرى في اهل هاتيك

الايام وهو الذي كان يشتد ويهب آونة بعد أخرى فيبعث النفوس
الامارة بالسوء على الحرب وسفك الدماء وتحدث من جراء ذلك
الولايات الهائلة التي سوف ناتي على ذكرها

وكان هؤلاء الجهال يحظرون على اهل الذمة العيش بما تقتضيه
وسائطهم وسعيهم ويمنعونهم من الترددي بالاردية التي يستعملها
المسلمون ولا يصرحون لواحدٍ منهم بركوب المطايا غير شخص البطريرك
وحدث من جراء ذلك امور نتمزق منها الاكباد ويتفطر لامثالها
النفواد من ظلم وشم واهانة وهتك اعراض وسلب مالٍ وشنق اناس
ابرياء لا ذنب لهم غير ادعاء بعض الاندال عليهم بتعديهم الحد
المفروض لهم . ومن غريب الامر انهم كانوا يعتبرون كل هذا الجور
وهذه الامور من آيات الدين والدين بريء منها ولولا ان يقوم في كل
عصر رجال عرفوا بالعلم والاستقامة ويعملوا على انقاذ الذميين من
هذه المصائب الحمراء لكان العيش لا يطاق ولا يذاق وهو مع ذلك
كان لا يمكن للذي في صدره شيء من المروءة فجعل الناس يلجأون الى
احد امرين اما الالتجاء الى وجيه او محارب من المسلمين واما الرحيل
عن البلدة التي يسكنونها والاقامة في قرى لبنان او سواها حيث لم
يكثر التعصب الى هذا الحد

✽ منشور درويش باشا ✽

والعجب ان الحكام كانوا يظنون ان ظلم اهل الذمة والتضييق
عليهم واجب ويطالبونهم بالمحافظة على القوانين الوحشية التي ذكرنا

بعضها وهذا نص منشور ارسله درويش باشا والي دمشق الى جماعة المسلمين في ١٩ رمضان سنة ١٢٣٦ بهذا الشأن مع ان هذا الباشا يعد من اعدل وارضح الولاة الذين ولوا دمشق في ذلك الزمن . وهذا هو بحروفه

« صدر مرسومنا هذا المطاع الى مشايخ واخيارية اهالي قرية سيدنايا المسلمين ليجروا بحسبه ويعتمدوه فالبادي هو ان النصارى عندكم عمال يقدوا الاسلام في ملابسهم وعماثهم ونعالهم وتعدوا درجاتهم وخالفوها فهذا ضد رضانا ولا يعطى به رخصة فبناءً على ذلك ارسلنا لكم مرسومنا هذا لاجل ان تحذروهم وتندروهم من عواقب ذلك المراد حالاً وتنهبوا عليهم الا يلبسوا ملبوس ازرق وعمامة سوداء ونعال سود ولا تدعوهم يقدوا الاسلام بادنى شيء لا نساءً ولا رجالاً وان بلغنا ان واحد تعدى الحدود المذكورة فما له لا يفني عن حاله وخطيته في عنقه ونطلع من حقكم وحقه فبناءً على ذلك ارسلنا لكم مرسومنا هذا من ديوان الشام على يد رافعه نحر اقرانه جندي باشي ارقداشي محمد اغا فبوصولهم تعملوا بموجبه وتخاصوا مخالفتهم اعلموه واعتمدوه والحذر من الخلاف في ١٩ رمضان سنة ١٢٣٦ » الختم

محمد درويش

ولهذا كان النصارى في حالة مكربة من الفقر ولم يمكن لهم معاطاة الاشغال التجارية او الفلاحة وكان جل معاشهم من الصناعة وبعضهم يدير انوال نسج في المدن الصناعية كدمشق وحلب وحمص بمشاركة المسلمين وتحت حمايتهم . ورخص الاسعار في تلك الايام ساعدتهم

على القيام باردهم وتحمل تلك المغارم الثقيلة التي كانت تعرض لهم كل يوم تقريباً. أما حالتهم من حيث المعارف فكانت متأخرة جداً لانهم كانوا اميين جهلاء لا يعرفون القراءة البسيطة والذي يحسن القراءة بينهم يجب علماً كبيراً وكان لبعضهم معرفة بالطب اخذوه بالارث وتعلموه بالمزاولة والاخبار حتى نبغ بعضهم فيه

✽ ايام ابراهيم باشا ✽

وظل الحال على هذا المنوال والناس يظلمون وليس من منصف و يقتلون وليس من مشفق حتى صارت البلاد على شفا الخراب التام وكثرت فيها الثورات والقلاقل وكان عدد الذين يقتلون بلا ذنب ولا اثم كل يوم بعد بالمئات والحكومة تشجع الاوباش والاوزاد على هذه الامور او لا تقوى على ردهم عنها حتى من الله بالفرج على البلاد الشامية بدخول ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا والي مصر اليها فما لبث ان وصل حتى امن الناس في الحال على ارواحهم واموالهم وعدل في قضاياهم ونظم امورهم وسهل طرق المشيشة والراحة عليهم وكان ذلك في اواسط عام ١٨٣١ وبعد حكم ابراهيم باشا في الشام بدء عصر التنوير والاصلاح فقد كان الذي قبل ايامه لا يعد نفسه من الادميين فلما انتشرت راية العدل وعم الامن وتساوى الناس امام الحاكم وظهرت القوة التي كانت كامنة في الصدر خطا النصارى الخطوات الواسعة في ميدان الحضارة ونشطوا الى القيام بالاعمال الكبيرة ولم يزل اهل الشام يتحدثون بابراهيم باشا وايامه الى هذا الحين . وسنعود الى ذكر ايامه وحكمه

* نطق شريف *

الأ أن ابرهيم باشا القائد الباسل والحاكم العادل لم يظل مدة طويلة في بلاد الشام لان دولة الاتراك استعانت عليه بدولة الانكليز فاخرجناه من الشام وما يليها واضطرتاه الى الرجوع الى مصر فعاد عنها وعادت الاحكام الى العثمانيين الا أنهم كانوا قد هبوا من رقادهم واشترطت انكلترا عليهم ان يصلحوا اداراتهم ويعدلوا في احكامهم وكلفت وكيلها السياسي في دمشق (الجنرال وود) بمراقبة اعمالهم والسيطرة على عالم . ولما انتهت الدولة التركية من حرب القرم وعقدت مخالفة باريز الشهيرة سنة ١٨٥٦ واهم بنودها اصلاح حال المسيحيين في البلاد العثمانية نشر السلطان عبد المجيد نطقه المشهور الذي رفع عن عاتق الدميين ظلم الايام القديمة وقد رأينا ان نقل هذا النطق الشريف بجروفه هنا لاهميته الكبرى وفائدته التاريخية وهذه صورته

لا يخفى انه منذ ابتداء ظهور دولتنا العلية كانت الاحكام القرآنية الجميلة والقوانين الشرعية المنيفة في غاية المراعاة الكاملة ولذلك كانت قوة سلطنتنا السنية وثبوتها مع راحة جميع الرعايا ورفاهيتهم وعمار البلاد في غاية ما يكون من الكمال . ولكن منذ مائة وخمسين سنة لم يعد انقياد كما يجب ولا امتثال لا للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة لسبب ما طرأ عليها من المحوادث الكثيرة . ولهذا قد انحوت تلك القوة الى ضعف والراحة الى التعب والعمار الى الدثار . واية مملكة لا تقوم يحفظ القوانين الشرعية تأول الى الاضمحلال . ومنذ جلوس سلطنتنا على تخت الخلافة انجهدت افكارنا الخيرية خاصة الى عمار البلاد وراحة العباد . فنظرا الى موافق ممالك دولتنا العلية وارضها المخصصة وقابلية اهلها واستعدادهم اذا اخذ في

عمل الوسائط اللازمة بشاهد سرعة حصول المتصود بتوفيق الله تعالى في برهة
خمسة أو عشر سنين

فاعتاد آ على عون الله تعالى واستمداداً بروحانية نبينا (صلعم) قد شوهد من
الامور المهمة اللازمة وضع قوانين جديدة لحسن ادارة دولتنا العلية وممالكنا
المحروسة . ونتيجة خلاصة هذه القوانين هي عبارة عن امنية الحماية وصيانة العرض
وحفظ شرف الانسان وامواله وتعيين مال الويركو وطريقة اخذ العساكر ومدة
استخدامهم . فلا يوجد في الدنيا شيء افضل من الحياة والعرض والشرف
فالانسان اذا نظر لهذه الامور وكانت على خلاف رضاهُ يمس من الحياة
ويبادر الى حفظ حياته وشرفه باعمال يؤذي بها الدولة والبلاد

وبخلاف هذا اذا كان مطمئناً على حياته وعرضه وشرفه لا يجتهد عن طريق
الاستقامة ويكون مجتهداً في حسن الخدمة للدولة والملة

واذا كان الانسان غير مطمئن على ماله فيبتأخر عن الاهتمام في كل ما ياول
لتجراح الدولة وعمار البلاد بخلاف ما اذا كان مطمئناً عليه فيكون مهتماً في اعماله
ومجتهداً في توسيعها وتضاعف عندهُ الغيرة للدولة والملة وحب الوطن ويبدل
نفسه دونها . فهذا الامر يجعله ان يكون مستعداً لكل فعل حميد . واما ترتيب
مال الويركو (اي المطالب الاميرية) فهو من اهم الامور لكون الدولة يقضي لها
نفقات كثيرة لتجهيز العساكر . وللدول ان تأخذ النفقات من الاهالي لعيانة المملكة
وقد امرنا برفع الحجز عن بيع كل صنف من البضائع والمحصولات بيد شخص
واحد الامر الذي كان الاقدمون يعتقدون انه اصل كل سعادة . وتفرض الاموال
الاميرية على كل انسان بحسب قدرته بالمال والاملاك . وان لا يطلب منه
شيء خلافة

ومن الامور المهمة ايضاً وضع قوانين لتعيين مصاريف عساكرنا البرية
والبحرية . ومن حيث ان صيانة البلاد امر واجب وفرض لازم فعلى الاهالي ان
يتدبوا انفاراً للعسكرية . فقد امرنا بوضع قوانين في كيفية اخذ الانفار على قدر
امكان كل مكان ومدة اقامتهم في سلك العسكرية اربع سنين او خمس . لانه اذا
اخذ انفار اكثر من طاقة الاماكن او مكثوا مدة حياتهم في العسكرية يكون ذلك

ظلمًا وضرراً على العباد والبلاد وبصير الانفار بيأسون من حياتهم اذا مكثوا مدة طويلة . ومن الآن فصاعداً لا يقاص احد لا سراً ولا جهراً باي نوع كان من القصاص الا بعد النخص والتدقيق تطبيقاً لشريعتنا الالهية . ولا يسمح لاحد ان يهين شرف الآخر كأننا من كان وكل واحد الحربية الكاملة ان يتمتع باملاكه وامواله بدون معارض كما ان اقارب المذنب لا يقاصون بذنبه ولا يجرمون من ميراثه اذا كانوا ابرياء

فلتعم هذه الترتيبات جميع رعايانا من امة ملة كانت ولتنتفع بها الجميع بدون استثناء . وليكن اطمئناننا كاملاً ممنوحاً منا الى جميع اهالي المملكة على حياتهم وشرفهم واموالهم حسب فرائض شريعتنا المطهرة وقد امرنا بوضع مجلس الاحكام العديلية يكون فيه وزراءنا ووكلاء رجال دولتنا يتكلمون فيه بالحربية التامة لاجل ترتيب ما يلزم لاطمئنان الرعايا على حياتهم واموالهم وتعيين الاموال الاميرية . واما الشرائع المختصة بتعريب العساكر فتصير المتفاوضة بها في المجلس العسكري تحت نظارة السر عسكر . وكل ما يرتبونه من الاشياء المستحسنة تعرض لسدتنا السلطانية فنشرفها في اعلاها خطأ بيدنا الملوكية لاجل المصادقة

ولما كانت هذه الترتيبات ليس لما غاية سوى تقدم الديانة والدولة والشعب وخير المملكة . فعمدنا الشاهانية نتعهد ان لا تفعل شيئاً مخالفاً لها . وتأكيدياً على الاقامة بهدنا هذا نقسم بالله العظيم امام كل العلماء ووكلاء رجال الدولة في بيت الخرقه الشريفه ونخلفهم ايضاً . وبعد ذلك كل من يخالف هذه الترتيبات يصير قصاصه على قدر ذنبه مع قطع النظر عن رتبته واعتباره . وبما ان للنوظفين ماعيات كافية فيجري القصاص الصارم على كل من يقبل الرشوة التي تحرمها الشريعة الالهية وتكون سبباً لسقوط المملكة . وبما ان هذه القوانين المتقدم ذكرها قد جعلناها عوضاً عن القوانين القديمة فلنعلن ارادتنا الملوكية السنبة في الاستانة العلية وفي سائر ممالكنا المحروسة وتعطى صورها ايضاً الى سفراء الدول المتحابة الموجودين في دار السعادة العلية لتكون دولهم شهوداً على دوامها الى ما شاء الله وعلا ذلك فلنحفظنا الله بحفظه الالهي وكل من خالف هذه الترتيبات فليكن موضوعاً للمعنة الالهية الى الابد آمين

وبعد نشر هذا المنطوق الشريف الذي جاء شاهداً على ما كانت عليه احوال الرعيّة والمملّكة من الاخلال ومخالفة الشريعة الغراء سارت البلاد على الخطة المرسومة فيه ولكن إلى حين

﴿ عودٌ إلى الاصل ﴾

ولما عادت البلاد إلى رؤسائها السابقين بعد خروج ابراهيم باشا من الشام فقد الشيء الكثير من الاصلاحات وضاعت اسباب الامن التي وضعها ابراهيم باشا في مدة ولايته التي بلغت تسع سنين . ونظراً لضعف بعض الولاة وعدم اقتدارهم على السياسة الحسنة وحفظ الامور طبق رغبة الذات الشاهانية طمع هؤلاء الرؤساء بالرجوع إلى الحالة التي كانوا عليها واخذوا يتقدمون اليها شيئاً فشيئاً رغماً عن مراقبة القنصل وودّ فنشأ من ذلك فقد الامن في الطرق على المسافرين وكثر الاعتداء في الارياض وصار بعض اصحاب المقاطعات يكدرون الراحة في نواحيهم ويحملون على بعضهم بعضاً وراج سوق الاقتراء والنهب والسلب والقتل في كثير من جيات البلاد وتأتى عن ذلك ثورات كبيرة منها ثورة في لبنان وأخرى في وادي التيم وبلاد القلمون عند ما عصى الامراء الحرافشة على الدولة وثورة بلاد النصيرية وثورة حلب ضد النصارى وغير ذلك مما كان يستدل منه بان البلاد عادت لما كانت عليه . وسياً في بيان هذه الثورات في الفصول القادمة

واما المدن فكانت الحالة فيها احسن قليلاً واستمر فيها مبدأ الاصلاح الذي بدأ فيه ابراهيم باشا ولكن لما وقعت الحرب بين الدولة

العثمانية وروسيا سنة ١٨٥٤ بدأ في المدن نفسها ما ابان بان نفوس
الاهالي كانت إلى ذلك الحين مبالغة إلى الحالة السابقة عند سئوح
الفرص المناسبة حيث ثارت نيران الاضطهاد ضد المسيحيين فصاروا
يهانون ويشتمون اشنع الشتم حيثما ساروا واينما داروا ويعاملون معاملة
وحشية وان تكن اخف من معاملتهم السابقة ولم تقف هذه الحالة على
حد الا بعد انتهاء الحرب ونشر التنظيمات الخيرية كما تقدم . ومما
جرى بعد خروج ابرهيم باشا من سوريا لحين نشر التنظيمات يظهر بان
جرثومة الاخلال لم تتلاش من البلاد السورية بل ضعفت نوعاً لتجدد
قواها عند مناسبة الظروف والاحوال وهذا اقوى دليل على ان
النكبات التي اصابته الشام ما بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٦٠ لم تكن
الا بسبب فساد الاحكام وظلم الحكام وسوف يظهر ذلك باجلى بيان
عند تفصيل الحوادث التي ستجيء . ونكتفي الآن بما تقدم من وصف
حالة البلاد والعباد التي كانت مقدمة لتلك الحروب والويلات

التي لم يزل صداها يرن في الاذان

وترجف من ذكرها

الابدان